المحطات المنهجية في نشأة الفكر الخديمي وتطوره

بقلم الباحث: مد فاي[40]

بسم الله ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد:

فإن الفكر الخديمي مر من خلال تطوره بمراحل مهمة جدا تدل على الفكر المنهجي لدى الشيخ الخديم ، والبعد النظري المتصف بوضوح الرؤية ، ودقة المنهج ، وبعد الهمة.

وقد اختلف معايير الباحثين المريدين في تحقيب مراحل تطور الفكر الخديمي ، فمثلا الأستاذ صالح سلام يعتمد على معيار البيعة الخديمية فيقول: "تحقيب تاريخ هذا الفكر إلى مرحلتين مختلفتين: مرحلة ما قبل البيعة ومرحلة ما بعد البيعة أو مرحلة ما قبل جيسش (1313ه/ 1895م) ، ومرحلة ما بعد عام (1895م). في هاتين المرحلتين يجد قارئ المريدية نفسه أمام مظهرين مختلفين لشخصية واحدة: مظهر مفكر مقلد قارئ ناقد ، باحث عن الدليل يحقق في معارف عصره ورجالها ، ومظهر مفكر مستقل تحرر من التقليد والابتداع إلى الإتباع والإبداع. كل مظهر من هذين المظهرين يعبر عن مرحلة تاريخية كاملة تختلف عن المرحلة الأخرى سواء تعلق الأمر بتاريخ المريدية بخاصة أو تاريخ الحركة الفكرية الإسلامية وعلاقتها بتاريخ السنغال بعامة"[41].

أما الأستاذ مصطفى جوب الككي فقد تبنى تصنيفا آخر أكثر توسيعا ، إذ يصنف الفكر الخديمي إلى أكثر من خمسة مراحل[42] ، وهذا التوسع في التصنيف جعله يهتدي إلى خطوة مهمة جدا في تاريخ الفكر الخديمي ، ألا وهو تحديده الدقيق لمراحل تطور الفكر الخديمي ، والحق أن عمله هذا قفزة منهجية مهمة لفهم التراث الخديمي؛ وهو ما يشكل المحطات المنهجية للفكر الخديمي.

وتأتي هذه المقالة لمقاربة هذا التصنيف المنهجي للفكر الخديمي مقاربة تأصيلية ، تؤصل كل مرحلة من مراحل تطور الفكر الخديمي بالنصوص التأسيسية للفكر الخديمي ، كنصوص الشيخ الخديم نفسه ونصوص الإرواء ، والمنن ، والنفحات وغيرها.

وقد جاءت المقالة بعد هذه المقدمة في خمسة محاور وخاتمة: المحور الأول والثاني: في مرحلة البحث والتحقيق المنهجيين عند الشيخ الخديم ، والمحور الثالث والرابع: في مرحلة التحقق والاستقلال المنهجيين ، والمحور الخامس والأخير في مرحلة ترسيخ أسس الفكر الخديمي.

والخاتمة تتضمن الخلاصة والاستنتاجات والتوصيات.

المحور الأول: مرحلة التحصيل العلمي والبحث عن المنهج عند الشيخ الخديم

تبدأ هذه المرحلة بسن التعلم بحفظ القرآن وتلقي العلم إلى سن الشباب ، (1271هـ - 1301هـ) ، في هذه المرحلة تفرغ الشيخ الخديم لطلب العلم واهتمّ بجمع الكتب؛ يقول الشيخ محمد عبد الله العلوي في النفحات [لم يصرف همته زمن

---

[40] باحث في سلك الدكتوراه ب جامعة شعيب الدكالي / كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجديدة/ المغرب

[41] - صالح سلام: من أجل إعادة القراءة المريدية ، ص/ 138 - 139.

[42] - انظر: كتاب "العمدة في نظرية الخدمة" في المبحث المعنون بـ"أهم محطات الشيخ العرفانية" ، ص/ 38.

الصغر إلا في طلب العلم، ولم يشتغل بتجارة أوحراثة مع أن أهل أرضه لا بد لأحد منهم من ذلك][43]، ويقول الشيخ محمد البشير في المنن: "تلقى من والده الورد القادري... يعمل به ومعوله الكتاب والسنة؛ فجعل همه في جمع الكتب والمطالعة، فجمع كتبا كثيرة؛ من فقه وسيرة وتصوف، ولقي كثيرا من الرجال في أثناء تطواف متعدد؛ كان الباعث عليه البحث عن الكتب، والرجال وزيارة مواضع الصالحين... فظفر بكتب كثيرة؛ مما كان في أرضه السنغال؛ ومما لم يسبق له وجود فيها، ومما كان في أرض البياضين التي طاف في كثير من أنحائها للرغبة نفسها. وفي أثناء ذلك أيضا لقي من مشايخ الطرق جملة وافرة، وأخذ عن بعضهم... وممن أخذ منهم بعض مشيخة الشاذلية، فعمل بوردهم ثمانية أعوام، على ما حكى عن نفسه؛ ثم أخذ التيجانية عن بعض مشيختها المتقدمين، فعمل بها تلك المدة أو أكثر. وجمع في هذه المدد كثيرا من تواليف مشايخ الطرق وعلمائها... كتأليف الكنتي وولده في الطريقة القادرية... وكذلك تواليف الشاذلية وأحزابها... وكذلك كتب التيجانية... إلى غير ذلك من الكتب النفيسة لهم ولغيرهم"[44]. ويقول الشيخ محمد الأمين جوب في الإرواء: إن "في هذه المدة جال الشيخ في البلاد الوُلْفِيَة[45] من "سَالُمْ"[46] إلى "وَالُو"[47] وزار كبارها الأحياء والأموات، واستجاز أشياخها، وتلقن الأوراد من أهاليها"[48]، من قادرية وتيجانية وشاذلية، وفي هذه المرحلة أيضا بدأ بالتأليف ومن مؤلفاته فيها، كتاب "مجمع النورين في فوائد الدارين" و"سلك الجواهر في الأخبار والسرائر" و"السفينة الأمان"، ومنظومة "ملين الصدور" المنسوخ بـ"منور الصدور"، و"مواهب القدوس في نظم نثر شيخنا السنوني" وقصيدة "الصنديد"[49].

وكل ما يمكن قوله إن الشيخ في هذه المرحلة كان يبحث عن المنهج، وكان ذلك باعثه الأساس على التحصيل الدقيق والمتقن، والتطواف الواسع والمستمر والجمع الكثير المحكم.

---

43 ـ محمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي الشنقيطي: النفخات المسكية في السيرة البكية، ت/ محمد بمب درامي وأبو مدين شعيب تياو، ط/2، دار الأمان ـ الرباط، 2019م، ص/65.

44 ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، ت: محمد شقرون، مر: أكاديمية منن الباقي القديم للعلوم الإسلامية، ط/2، دار المقطم القاهرة ـ مصر، 2017م، (1/ 130 ـ 131).

45 ـ الوُلْفِيَة: نسبة إلى وُلْفْ، وهي جماعة عرقية منتشرة في السنغال. لهجتهم تسمى: وُلْفْ أيضا، وكذلك الشخص المنتمي إلى هذه الجماعة العرقية يدعى وُلْفْ. ولهجتهم أكثر استعمالا في السنغال. ينظر في: إرواء النديم من عذب حب الخديم، محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ ص/ 39.

46 ـ سَالُمْ: من الممالك السنغالية التي كانت تابعة لإمبراطور "جُلُفْ" وكانت تمتد من غرب السنغال إلى شرقه، وإلى دولة غامبيا جنوبا، وهي حاليا تقع في إقليم كَوْلَخْ في وسط السنغال. ينظر في: إرواء النديم من عذب حب الخديم، محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ، ص/ 50.

47 ـ وَالُو: من الممالك السنغالية القديمة، وكانت تقع في أقصى جهة الشمال الغربي، وكانت تشمل جزءا من موريتانيا. ينظر في: إرواء النديم من عذب حب الخديم، محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: ص/ 54.

48 ـ محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: إرواء النديم من عذب حب الخديم، ت/ مجموعة من الباحثين، ط/1، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط 2017م، ص/ 86.

49 ـ محمد مصطفى جوب الككي: كتابات الشيخ الخديم التنويرية، ص/4.

المحور الثاني: مرحلة التحقيق المنهجي وظهور الفكر التربوي الصوفي المعروف بالهمّة:

وهي المرحلة التي قام فيها الشيخ الخديم بتحقيق أوراد الشيوخ، يقول صاحب المنن: "قام في تحقيق الورد القادري إذ تنبه عليه من انتظام أهل بيته في سلكه... ثم بلغه ذكر آل الشيخ سيديا تلميذ آل الشيخ سيدي المختار الكنتي فكتب الله في قلبه زيارتهم والأخذ عنهم فذهب إلى الشيخ سيديا بابا، ثم مكث معه زمانا ثم رجع إلى أهله بالورد المذكور... ثم بعد التحقيق لم يكفه ما تحصل عليه منهم... فبحث عن التيجانية والشاذلية فزار آل حمد، ورؤساء الطريقتين، فلم يكن نصيبهم من ترقيته أكثر من نصيب الطائفة الأولى"[50]؛ إذ وجد "أنّ أقصى مراد جل مشايخ الطرق والأوراد، تصحيح السلسلة وتوفية الشروط، والابتهاج بسير رؤساء السلسلة إلى أن تنتهي إلى أحد المشايخ العظام، دون التعطش إلى المناط الأصلي من الكتاب والسنة اتباعا وتخلقا، وتفهم الشريعة والأخذ بأهداب الحقيقة المنورة التي هي ينبوع سر النبوة من معدن النور الأعظم الفائض عن حقيقته ﷺ"[51]، فلما تحقق بهذا تطلع إلى الهمم العالية ودعا إلى التجديد بالتربية بالهمة بدل التعليم فقط، وأعلن دعوته التجديدية الإصلاحية المعروفة بالمريدية، حين خطب قائلا: "ألا من كان صحبنا للتعلم فلينظر لنفسه وليذهب حيث شاء وليأو لجنسه، ومن أراد ما أردنا فليسر بسيرنا وليقم بأمرنا..."[52].

وبعد هذا الإعلان ظهر الفكر التربوي الصوفي لدى الشيخ الخديم حيث "استقلّ بالعبادة والعلم والرياضة على حسب أخلاق القوم بطريق السنة والصلاة على النبي ﷺ، وصار الناس يأخذون عنه العلم، ويلازمه بعضهم للتأسي والاقتداء والتجرد من الدنيا وصدق الإرادة، وجعل يصف حقيقة الإرادة لهم، فسلك بعضهم سبيل الإرادة وبعضهم بقي على ما كان عليه من التعلم، وهو يربي أولئك تربية المريدين الذين هو أولهم. فحصل لهم بين الصدق والإخلاص اللذين لا يشك أحد في تحصيلهم إياهما على الوجه الأكمل من طريق رياضة الذكر والزهد والخدمة للصالحين ولسائر المؤمنين، خدمة ولاء وخدمة إيثار، أذواق رائقة، فظهر عليهم نور الاتباع من الورع وجرت الحكم على ألسنتهم من الأفئدة عن الجود اللدني، وكان بعض من له إلهام بعلوم القوم وصفاتهم يرمقونهم بالإبصار، وبعض العلماء يستخفون بهم ويقولون: لا نعلم طريقا إلى الجنة غير التعلم والتعليم الرسمي"[53]، ولكن الشيخ الخديم كان عظيم الهمة، "وكان يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها"[54]، وذلك لـ"ما سمت إليه همته من المكانة العظمى، والخلافة الكبرى، والوراثة العليا لمقام

[50] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 233 ـ 236).

[51] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 233 ـ 236).

[52] ـ محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: إرواء النديم من عذب حب الخديم، ص/ 75 ـ 77.

[53] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 146 ـ 147).

[54] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، (1/ 102).

العبودية الأسمى ، بقربه من الله زلفى"[55] ، وعزم نيته على تجديد السنة النبوية الشريفة فيقول:

لِلْمُصْطَفَى نَوَيْتُ مَا يُجَدِّدُ سُنَّتَهُ الْغَرّا وَإِنِّي أَحْمَدُ[56]

وكان التجديد الخديمي في هذه المرحلة منحصرا في إيقاظ همم المسلمين وتجديد عقليات الأمة الإسلامية حتى تواكب ما جاء به النبي ﷺ[57] وفي حث المسلمين عامة وأتباعه خاصة على رفع هممهم؛ وحينما يتعرض أتباعه للاضطهادات والمضايقات "كان يثبتهم ويقوي بصائرهم بحمل هممهم إلى همم أصحاب رسول الله ﷺ [فيقول لهم]: لقد لقي أصحاب رسول الله ﷺ ما هو أشد ، إذ قتلوا في سبيل الله وأهريق دماؤهم وسلبوا أموالهم وأخرجوا من ديارهم فلم يصدهم شيء عن مطلبهم حتى فازوا بمدح الله إياهللْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[58] أما علمتم أن أولئك آباؤكم في الدين فعلام الجزع ، والموت في حقكم قليل؟! ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[59] فاصبروا وأحسنوا إلى من أساء إليكم ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[60] فاجعلوا نصب عيونكم يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[61] فإذا لا يسوءكم رفض من رفضكم"[62].

هكذا كانت هذه المرحلة مرحلة همة بحق ، وأي همة أعلى من همم أصحاب رسول الله رضي الله عنهم.

وقد تميز الفكر الخديمي في هذه المرحلة بالتحقيق والنقد والتقويم ، ظهر ذلك في مؤلفاته فيها كمنظومته "مسالك الجنان" التي أورد فيها ما تحقق من المعارف الصوفية ونقد فيها الواقع المجتمع السنغالي شيوخا ومريدين ، وكذلك منظومته "مغالق النيران ومفاتح الجنان" التي قوّمها بشروط طالب العلم وضوابط المريد السالك ، كنقيض أطروحة لمسالك الجنان.

ويؤرخ الشيخ الخديم هذه المرحلة بعام أسش (1301ه/ 1883م) ، فيقول رضي الله عنه: "ألهم الله كاتب هذه الحروف أن يتعلق برسول الله ﷺ ، عام أسش (1301ه) واشتغل بخدمته عليه الصلاة والسلام إلى عام أيسش [1311ه]"[63].

المحور الثالث: مرحلة التحقق المنهجي وظهور الفكر التجديدي المعروف بالمبايعة بالخدمة:

---

[55] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 129).

[56] ـ الشيخ الخديم: سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، ت/ الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، ط/1 ، 2021م ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ـ المغرب ، ص/ 311 ـ 313.

[57] ـ محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ، ص/39.

[58] ـ سورة الحشر ، الآية: (8).

[59] ـ سورة الأحزاب ، الآية: (21).

[60] ـ سورة فصلت ، الآية: (33 ـ 34)

[61] ـ سورة الإسراء ، من الآية: (71)

[62] ـ محمد الأمين جُوبْ الدَّكَانِيُّ: إرواء النديم من عذب حب الخديم ، ص/ 96.

[63] ـ محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ـ الآليلت والمحاور/ الأيديولوجية البديلة ، ط/1 ، دار المعارف الجديدة ـ المغرب ، 2019م ، ص/51.

وهي المرحلة التي تحقق فيها الشيخ الخديم من معارف عصره ، يقول صاحب المنن: "وكان التحقق في أواخر عام (يسش 1310ه/ 1893م) وفيه حصل التعرف بالأشياخ الكرام بواسطة العناية من طريق الأوراد لا ترقية الملقنين ، وإن كانت لهم منة الاعتناء والعهد المرعي"[64]. فجدد الشيخ العهد بالمبايعة وحزم للتحرر من قوالب التصوف الجامدة وتقليد الشيوخ إلى السنة البيضاء باتباع الرسول ﷺ[65] ومبايعته بالخدمة ، وتجديد سنته المطهرة ، ويؤرخ الشيخ هذه المرحلة بعام (أيسش: 1311ه/1894م) ، ذلك أن الشيخ الخديم لما تحقق من شيوخ عصره و[لم يحصل على مراده مما يرقي همته إلى الحقائق الشرعية ودقائق التصوف ، لأنه كان يريد دليل حق على الله ورسوله بالأقوال والأحوال والإشارات والأعمال ليصل إلى الله بلا إشراك على سنة رسول الله ﷺ ، أبقى لهم الأدب فجدد التوبة وانقطع رجاؤه من مشايخ العصر ، وتضعضعت ثقته بظواهر الأوراد ، فأقبل إلى الله بقلب منيب وتوصل برسول الله بالخدمة والصلاة على السنة والعمل بالقرآن تلاوة وتدبرا ، فكان هذا الإعراض فاتح عصر جديد في التوبة من التقليد إلى الاقتداء ومن التمسك بالرجال إلى التمسك برسول الله ﷺ][66] ، فكانت هذه المرحلة بمثابة قطيعة منهجية في الوسائل والأسباب إلى مرحلة جديدة في السلوك والتوبة والإنابة إلى الله ، يقول صاحب المنن: [فرجع إلى الله... فكان هذا الرجوع والإنابة إلى الله تعالى فاتحة عصر جديد في حياته وتوبة جديدة في مقامه ، كان ذلك عام (أيسش 1311ه/ 1894م) ، فتقرأه في قصيدته المرتبة على حروف (ابتثجح) رجوعه من الافتقار إلى المخلوق إلى الافتقار إلى الخالق ، ومن التوسل بالأسباب إلى التوسل بخير سبب وأوله سيد الوجود ﷺ ويصرح بمبايعته له عليه السلام وتفريده من بين الوسائل ، ولكل حرف من الحروف الهجائية أبيات قال في أولها:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَفَنِي ... مِنْ لُطْفِهِ عَنْ بِدَعٍ لِلسُّنَنِ

أَشْكُرُهُ جَلَّ عَلَى الْكِتَابِ ... وَالسُّنَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالصَّوَابِ

أُبَايِعُ الْيَوْمَ رَسُولَ الْمُصْطَفَى ... بِخِدْمَةٍ وَأَسْأَلُ اللهَ الْوَفَا

أُعَاهِدُ اللهَ عَلَى أَخْذِ الْكِتَابِ ... بِخِدْمَةٍ لِلْمُصْطَفَى بَابِ الصَّوَابْ

أَحَقُّ جُمْلَةِ الْوَرَى بِخِدْمَتِي ... بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ رَسُولُ الرَّحْمَةِ

إلى أن قال في حرف الظاء:

ظَهَرَ لِي أَنَ اعْتِصَامًا بِالْكِتَابْ ... وَبِحَدِيثِ الْمُصْطَفَى هُوَ الصَّوَابْ

ظَلِلْتُ عَابِدًا خَدِيمًا لِلرَّسُولْ ... مِنْ عَامِ أَيْسَشٍ إِلَى عَامِ الرَّحِيلْ][67]

وفي هذه المرحلة تجسد الفكر الخديمي في مشروع تجديدي شمل جوانب عدة ، من تعليمية وتربوية واجتماعية ، ففي المرحلة السابقة "كانت التربية بالأوراد فصارت بإقامة شعائر الإسلام واستدامة الذكر والتذاكر ، فصارت تابعة بعد أن كانت مسايرة ،

[64] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 233 ـ 236).

[65] . محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ، ص/39.

[66] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 234).

[67] . محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 237 ـ 238).

وكانت التواليف في تحقيق العلوم الشرعية ، فصارت الكتابة في التحقيق بحقائقها والاتصاف بمحامدها ، وغادرها رسوما ثبت عليها مدارج السلوك لمن عني بالهدى ، وكانت المعاملة مع المعاصرين بالمدارات فصارت إلى الصراحة في الحق ، والمقاطعة على حدود الشرع (أي المعاملة بمقتضى الشرع) حبا وبغضا بلا مداراة ولا مداهنة وقد أوضح ذلك عالم (كجور) وقاضيها مَجَخَتِ كَلَ... الذي [قال الشيخ لرسوله]: (ليكن نطقك وحبك وبغضك في الله ولله فقط)... ثم لما كان (مجخت) فهم كثيرا من هذا المنحى ، جعل يستخبر شيخنا رضي الله عنه فرماه بهذا البيت:

حُقَّ الْبُكَاءُ عَلَى سَادَاتِ الأَمْوَاتِ

تَبْكِي الْأَرَاضِي عَلَيْهِمْ كَالسَّمَاوَاتِ

فأطنب رضي الله عنه في وصف القوم الذين هو معهم معية كاملة قلبا وقالبا ، وبعبارة أخرى يصف نفسه وقومه وذوي تربيته يومئذ في طوبى عام (أسش 1311ه/ 1894م) بعد التعلق بالرسول المصطفى ﷺ"[68] ، فقال رضي الله عنه:

"كَانُوا عِبَادًا بِطَاعَاتٍ لِرَبِّهِمُ

وَكَانَ جَلَّ لَهُمْ رَبًّا بِمِنَاتٍ

كَانُوا يَعُدُّونَ تَرْكَ الْوِرْدِ مَعْ شِبَعٍ

مِنَ الْحَلَالِ مِنْ أَسْبَابِ الْمُصِيبَاتِ

كَانُوا إِذَا اللَّيْلُ أَرْخَى السِّتْرَ ذَا حَلَكٍ

قَامُوا سِرَاعًا لِإِحْيَاءِ الدُّجُنَاتِ

بَاعُوا فُضُولًا بِذِكْرِ اللهِ خَالِقِهِمْ فَالنَوْمَ فِي اللَّيْلِ بَاعُوا بِالْمُنَاجَاتِ"[69]

ويرى الأستاذ الباحث صالح سلام أنّه "إذا كان كتاب (مواهب القدوس) و (مسالك الجنان) قد اختضنا معا المريدية كفكرة (أي الفكر المريدي) في مرحلتها الجنينية ، أي قبل ميلادها ، فإن منظومتي (حق البكاء) و(الصنديد) قد حددتا الاتجاه الفكري العام للدعوة وأفكارها الجديدة في مجال التربية ومناهجها التي اتبعها السلف الصالح بالمعنى الواسع ، لقد عبر الشيخ في هاتين المنظومتين بطريقة غير مباشرة (رمزية صوفية) عن فكرة العودة إلى ماضي السلف الصالح من خلال شعوره العميق بالماضي المفقود ، ماضي الأنبياء والرسل والصالحين والمجددين والمصلحين في تاريخ الوحي الإلهي بهدف استعادة تجاربهم وقيمهم العليا للعمل على توظيفها في اتجاهه التربوي الإصلاحي الجديد:

يَالَهْفَ نَفْسِي عَلَى فَقْدِ الْأَكَابِرِ مَنْ

غَابُوا لِرَبٍّ دَعَاهُمْ لِلْعُلُوَاتِ

نَالُوا بِقَفْوِ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى رُتَبًا

صَلَّى عَلَيْهِ الَّذِي يُعْطِي الْمَزِيَاتِ

قَوْمٌ طَرِيقَتُهُمْ تَكْفِي الْمُرِيدَ أَذَى

مِنَ الْمَرِيدِ وَأَنْوَاعَ الْغُرُورَاتِ

طَرِيقُهُمْ قَصْدُ وَجْهِ اللهِ دُونَ هَوًى

مَعَ الْأُصُولِ الَّتِي تَنْفِي الرُّعُونَاتِ

إلى جانب هذا الشعور القوي بالحنين إلى ذلك الماضي المفقود ، نراه ـ رضي الله عنه ـ يستعيده بطريقة صوفية ، غير مباشرة مع الأركان والمبادي

[68] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 241 ـ 244).

[69] ـ الشيخ الخديم: المجموعة الصغرى ، ص/ 214.

العامة للسلوك ، وآداب السير إلى الله تعالى والصفات المحمودة التي يجب ، أو ينبغي أن يتصف بها المريد والشيخ المربي كلّ فيما يخصّه ، بالإِضَافَةِ إِلَى نَبْذِ التَّقْلِيدِ الَذِّي يؤدي دائما إلى التعصب المذهبي ، وإلى تجديد العلوم الدينية ، وتوحيد كلمة المسلمين ، والمساواة ، والتأييد على قيمة العمل كمعيار أخلاقي اجتماعي"[70].

بعد هذه القطيعة المنهجية ، قام الشيخ برسم معالم منهجه الجديد وهو منهج السلف الصالح كما نوه بصفاتهم في قصيدته فقال:

بَنَيْتُ طَاعَتِيَ بِاتِبَاعِ

بِالذِّكْرِ وَالْحَدِيثِ وَالْإِجْمَاعِ

مَشَايِخِي سَيِّدُنَا الْجِيلَانِيُّ

وَالشَّاذِّلِيُّ مَعَهُ التِّيجَانِيُّ

أَئِمَتِي فِي الْفِقْهِ مَالِكُ الْعَلِي

وَالشَافِعِيُّ وَالْحَنَفِي وَالْحَنْبَلِي[71]

المحور الرابع: مرحلة الاستقلال المنهجي وظهور الفكر الخديمي "الخدمة":

وهي مرحلة الانسلاخ الكلي من قوالب المحافظة إلى رحاب التجديد ، ويؤرخه الشيخ بعام (جيسش 1313ه) قائلا:

وَأَظْهَرَ الْخِدْمَةَ عَامَ جَيْسَشٍ (1313ه) وَقَلْبُهُ أَضْمَرَهَا مِنْ أَسَشٍ (1301ه)

وهو العام الذي خرج فيه الشيخ إلى غيبته البحرية لخدمة الرسول ﷺ حيث قال:

خَرَجْتُ يَوْمَ السَّبْتِ ثَامِنَ عَشَرْ

لِخِدْمَةِ الْمُخْتَارِ فِي شَهْرِ صَفَرْ

يوم وادع أصحابه قائلا لهم: "اجتهدوا في الطاعة ، فلم أذهب إلا لخدمة قمت بها وصلاحها في هذا السفر فقط وسأرجع إليكم إن شاء الله"[72].

ويقول المفكر الككيُّ: إن الشيخ [افتتح مشروعه التجديدي برفض منغلقات إشكالية التجديد في بعده المعرفي وطرحها بطريقة تجديدية فصرح قائلا:

دِينٌ سِوَى إِسْلَامِهِ لَا يُحْمَدُ عِنْدَ الْإِلَهِ وَبِهِ نُجَدِّدُ[73]

حيث أنه لم يقل تجديد الإسلام ، وإنما قال التجديد بروح الإسلام بالمفهوم الجمعي لعقلية الإنسانية الجمعية ، فظهر مشروع التجديد الخديمي كمشروع جمعي لا فردي بالمعنى السيسيولوجي للكلمة أي: (علم الاجتماع العرفاني) ، وذلك بصياغة التجديد صياغة جديدة تطابق مقررات الإسلام ومبادئه ، ثم قام بتجديد علم الكلام ، فقسم علم التوحيد بالمعنى اللاهوتي إلى قسمين سمى الأول: التوحيد الكلامي والثاني: التوحيد العرفاني][74] فقال:

وَبَعْدُ فَالتَّوْحِيدُ لِلْقِسْمَيْنِ

---

[70] ـ صالح سلام: من أجل إعادة القراءة المريدية ، ص/ 122 ـ 124.

[71] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (1/ 248).

[72] ـ محمد البشير امباكي: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، (2/ 277).

[73] ـ الشيخ الخديم: سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، ت/ الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، ط/1 ، 2021م ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ـ المغرب ، ص/ 311 ـ 313.

[74] ـ محمد مصطفى جوب الككي: كتابات الشيخ الخديم التنويرية ، ص/6.

مُنْقَسِمٌ فَصَارَ تَوْحِيدَيْنِ

فَـــأَوَّلٌ تَـكَـلُـمٌ والـثَّـــانِ

تَعَرُّفٌ لَا تُنْكِرَنْ بَيَانِي[75]

ثم قام بتجديد مجموعة من المفاهيم الخاطئة التي تؤدي إلى الجدال والخوض في ذات الله وصفاته بما لا يليق، مما يسبب سوء الخاتمة كمسألة الاستواء التي خاض فيها المتكلمون بالكيفية فقال:

وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ذُو اسْتِوَا بِمَا يَلِيقُ وَعَلَى الْمُلْكِ احْتَوَى[76]

وكذلك مسألة المعية التي اشتدّ نقاش العلماء فيها في عصره فكتب عنها أجوبة قال فيها: "إن الله تبارك وتعالى معنا معيّة تليق به سبحانه لا معيّة تدرك بالعقل.... فالحق الذي ينبغي الرجوع إليه ترك التأمل في كيفية المعيّة والإيقان بوجودها، فتأمل في كيفيتها مما يسلب الإيمان، والعياذ بالله تعالى"[77].

ذاهبا فيها مذهب الرسول ﷺ حين خرج فوجد الصحابة يتناقشون في متشابهات القرآن فنهاهم، لما سيؤول إليه ذلك من المفاسد، روى الإمام أحمد في مسنده "عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟، فسمع رسول الله ﷺ، فخرج كأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: بهذا أمرتم!! ، أبهذا بعثتم!! أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض!! إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هنا في شيء، انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا"[78].

المحور الخامس: مرحلة ترسيخ أسس المنهج ونضج الفكر الخديمي:

وتشمل هذه المرحلة حياة الشيخ الخديم في غيبته البرية في موريتانيا ثم حياته في إقامته الجبرية في (تِيِنْ وجُرْبِلْ) وفيها تلقى الشيخ ورده المأخوذ من الله بواسطة رسول الله ﷺ بأشكاله ابتداء من عام (بكسش: 1322ه)، وكذلك عام حج القلب والقلم، وهو عام (دكسش: 1324ه)؛ الذي فيه رزقه الله تعالى حجا مبرورا بعد ما عاقه المستعمر الفرنسي خوفا من تأثره بالمؤثرات الخارجية، كما حدث مع الحاج عمر الفوتي تال حين حج البيت الحرام وزار (مصر) وإمارة (سوكوتو) و(فوط جالون) وخالط كثيرا من العلماء المجاهدين من كل مذهب مما يظن أنه أثر في دعوته وجهاده فيما بعد، يقول الشيخ:

اللهُ لِي قَادَ مَا يَبْدُو وَمُنْكَتِمٌ

مِنْ دَكْسَشٍ عَامَ حَجِّ الْقَلْبِ وَالْقَلَمِ

وفي هذه المرحلة أعطاه الله تبارك وتعالى العلوم النافعة والأوراد الموصلة فقال: "فليعلم ولينتبه جميع العالمين على أن الله تبارك وتعالى أعطى عبده وخليله وحبيبه وخديم رسوله وخليله وحبيبه ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبارك ـ الورد القادري، والورد الشاذلي، والورد التجاني، بعد القرآن والحديث وجميع العلوم النافعة تعلما وتعليما بواسطة أرباب الأوراد الثلاثة ـ عليهم رضوان الله تعالى ـ،

---

[75] ـ الشيخ الخديم: ديوان العلوم الدّينية، منظومة مسالك الجنان، ص/ 296.

[76] ـ الشيخ الخديم: ديوان العلوم الدّينية، منظومة فيض الغني المغني فيما عن السلوك يغني، ص/ 132.

[77] ـ عبد القارد بوسو الحاج شيخ: من فتاوى الشيخ أحمد بمب امباكي وأجوبته ونوازله، ص/155 ـ 156.

[78] ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت/ أحمد محمد شاكر، ط/1، ن/ دار الحديث القاهرة، 1995م، رقم الحديث: 6846.

وبواسطة المؤلفين ـ عليهم الرضوان والرحمة ـ وأذن له في إعطاء جميع الأوراد وفي تعليم جميع التواليف، بتغيير وضعها كما شاء، والله على ما نقول وكيل"[79].

وفي هذه المرحلة أيضا أوضح الشيخ الخديم أسس طريقته المريدية فقال إجابة عن أسئلة حاكم المستعمرين في السنغال حين سأله عن دعوته الإصلاحية (المريدية) فقال: "﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[80]. الجواب فيمن تأسست منه طريقة المريدين؟ أسّ الطريقة الإيمان بالتوحيد والإسلام بالفقه والإحسان بالتصوف. أما المولد فكلّ من تولد في بلد ما من بلاد الإسلام فذلك مولده، وأما مكانه فكذلك، وأما أتباعه أولا المتعلمون بالقراءة، وأما مقصده فوجه الله تعالى الكريم، وأما البلاد التي يجول فيها المريد فبلاد المسلمين، وأما محلّ وفاته فكل من مات من أرباب الطرائق فالمحل الذي مات فيه فهو محل وفاته، وأما الباقون على الطريقة القديمة فهم المؤمنون المسلمون المحسنون حيث كانوا... وأما أول قوم هم أول من تلقوها من المشايخ فالذين يريدون وجه الله تعالى من زمن رسول الله ﷺ إلى زمننا هذا. وأما تاريخها فمن الهجرة النبوية إلى همسش (1345ه/1926م). وأما الرؤساء منهم الآن فلم يبق أحد الرؤساء المحققين. وأما أصل هذا المجيب فأصوله مؤمنون مسلمون محسنون. وأما وقت دخوله هذه الطريقة فإنه أخذه من الناس الذين كان يظن أنّهم محققون، ثم بدا له أن الأمر لم يكن كذلك! فغيبه الله تبارك وتعالى إلى البحر فتلقاها أي: الأوراد الثلاثة من رسول الله ﷺ بلا واسطة بسبب كثرة خدمته له، وجعل الله تبارك وتعالى القرآن والإسلام وديعتين له، والله على ما نقول وكيل. والسلام"[81].

ثم مرحلة الجوار التي هي بمثابة، بداية الارتحال الخديمي إلى جوار ربه، وانمحاق الحجب بينه وبين الله وهو عام جَمْسَشٍ: (1343ه)، فقال:

جَذَبَنِي الْجَلِيلُ عَامَ جَيْسَشٍ: (1313ه) جَاوَرَنِي الْجَمِيلُ عَامَ جَمْسَشٍ: (1343ه)[82]

هكذا نرى اختلاف الباحثين في تصنيف مراحل تطور الفكر الخديمي، وإذا كان التصنيف السلامي أبسط، فإن التصنيف الككي أوسع وأشمل لتتبع مراحل انبناء الفكر الخديمي منذ البداية إلى أن استوى كصرخ فكري بدقة متناهية.

الخاتمة:

لقد تناولت في هذه المقالة مراحل تطور الفكر الخديمي، وقمت بمقاربته مقاربة تأصيلية، مستهلا بتصنيفات الباحثين المريدين لهذه المراحل، ثم سردها وتأصيلها وتحليلها تحليلا منهجيا، وقد توصلت من خلال البحث والدراسة بنتائج أهمها:

1. إن أصل هذه الدراسة هو المعالم المنهجية لتطور الفكر الخديمي التي أفردها الأستاذ مصطفى جوب الككي بمبحث في كتابه (العمدة) تحت العنوان: "أهم محطات الشيخ العرفانية"، وإنما تناولتها هنا

[79] ـ الشيخ الخديم: المجموعة الصغرى، ص/ 163.

[80] ـ سورة الإخلاص: (112).

[81] ـ الشيخ الخديم: المجموعة الصغرى، ص/ 255 ـ 256.

[82] ـ محمد مصطفى جوب الككي: العمدة في نظرية الخدمة ـ الآليلت والمحاور/ الأيديولوجية البديلة، ط/1، دار المعارف الجديدة ـ المغرب، 2019م، ص/39 ـ 42.

بالتأصيل والتفصيل على ضوء النصوص الخديمية المباركة.

2. يعتبر المحطات المنهجية لتطور الفكر الخديمي مدخلا مهما لفهم الفكر الخديمي ، وهي في الحقيقة خطوات منهجية لا مناص عنها لتجنب التعارض والخلط في دراسة التراث الخديمي.

3. يعتبر الأستاذ مصطفى جوب الككي والأستاذ صالح سلام رائدا الاتجاه الفلسفي المعاصر للفكر الخديمي؛ وذلك لتناولهما الفكر الخديمي بالبحث العلمي والدراسة المنهجية والتنظير الفلسفي: الأستاذ الككي بكتابه (العمد في نظرية الخدمة) ، والأستاذ السلامي بكتابه (من أجل إعادة القراءة المريدية).

أما التوصيات التي أقدمها في نهاية هذه الدراسة فتتلخص فيما يلي:

1. ضرورة إعادة قراءة الفكر الخديمي قراءات عدة: قراءة منهجية؛ قراءة تاريخية؛ قراءة معرفية إبستمولوجية ، قراءات لتحديد الثوابت والمتغيرات والوسائل والغايات.

2. ضرورة إقامة مراكز بحثية علمية خديمية تتخصص في دراسة الفكر الخديمي دراسة علمية ومنهجية ، لشرح هذا التراث العظيم ونشرها وحفظها.

3. ضرورة الانفتاح على التراث الإسلامي المعاصر ومقارنتها بالتراث الخديمي؛ ذلك أن العصر الذي عاش فيه الشيخ الخديم ، كان متصفا بكثير من الاضطرابات السياسية والاجتماعية والدينية في معظم الدول الإسلامية ، مما نتج عن ذلك ظهور عدة مصلحين اجتماعيين يعالجون نفس القضية: قضية الاستعمار الغربي للدول الإفريقية عامة والدول الإسلامية خاصة ، ومحاولة هدم ثقافتها وحضارتها لتنصير شعبها المسلم.

هذا وأكمل الصلاة مع أتم التسليم على سيد الأولين والآخرين ، من بعث رحمة للعالمين:

سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَالْآلِ ★ وَصَحْبِهِ فِي الْحَالِ وَالمآلِ[83].

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

إرواء النديم من عذب حب الخديم ، محمد الأمين جُوبٌ الدَّكَانِيُّ ، ت/ مجموعة من الباحثين ، ط/1 ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط 2017م.

ديوان العلوم الدّينية ، الشيخ الخديم ، ج/ الرابطة الحديمية للباحثين والدارسين ، ط/2 ، دار الأمان للنشر والتوزيع ـ الرباط/ المغرب ، 2020م.

سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ،الشيخ الخديم ، ت/الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، ط/1 ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ـ المغرب ، 2021م.

العمدة في نظرية الخدمة ـ الآليلت والمحاور/ الأيديولوجية البديلة ، محمد مصطفى جوب الككي ،ط/1 ، دار المعارف الجديدة ـ المغرب ، 2019م.

[83] ـ الشيخ الخديم: سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين.

كتابات الشيخ الخديم التنويرية ، محمد مصطفى جوب الككي.

المجموعة الصغرى ، الشيخ الخديم ، ت/ مجموعة من الباحثين ، ط/1 ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط ، 2018م.

مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أحمد بن حنبل ، ت/ أحمد محمد شاكر ، ط/1 ، ن/ دار الحديث القاهرة ، 1995م.

من أجل إعادة القراءة المريدية ، صالح سلام ، ط/1 ، طوبى ـ السنغال ،2017م.

منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، محمد البشير امباكي ، ت: محمد شقرون ، مر: أكاديمية منن الباقي القديم للعلوم الإسلامية ، ط/2 ، دار المقطم القاهرة ـ مصر ، 2017م.

من فتاوى الشيخ أحمد بمب امباكي وأجوبته ونوازله ، عبد القارد بوسو الحاج شيخ ، ن/ دائرة روض الرياحين (طوبى ـ السنغال) ، ط/1 ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط ، 2019م.

النفحات المسكية في السيرة البكية ،محمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي الشنقيطي ، ت/ محمد بمب درامي وأبو مدين شعيب تياو ، ط/2 ، دار الأمان ـ الرباط ، 2019م.